

استغاثة سلاطين غرناطة بسلاطين المماليك في مصر بين الاستجابة والرفض
(٨٤٤-٨٩٧ هـ / ١٤٤٠-١٤٩٢ م)
دراسة وثائقية تحليلية

**“The Sultans of Granada appeal With the
Mamluk Sultans in Egypt between Response and
Rejection (844-897 A.H / 1440-1492 A.D)
(an analytical documentary study)”**

د. إيمان بنت دخيل الله العصيمي
أستاذ مساعد بجامعة أم القرى

DR. EMAN DAKHEELALLAH ALOSAIMI
College of Shari'ah 'Islamic Law'
and Islamic Studies
History and Islamic Civilization Dept.
edosaimi@uqu.edu.sa

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لجامعة أم القرى

استغاثة سلاطين غرناطة بسلاطين المماليك في مصر بين الاستجابة والرفض

(٨٤٤-٨٩٧هـ / ١٤٤٠-١٤٩٢م)

دراسة وثائقية تحليلية

د. إيمان بنت دخيل الله العصيمي

أستاذ مساعد بجامعة أم القرى

ملخص البحث: يتناول التحليل أربع رسائل من مملكة غرناطة في بلاد الأندلس، للسلطنة المملوكية في مصر، وكانت أولي هذه الرسائل عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م، والثانية عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م، والثالثة عام ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م، والرابعة عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٨م، والدراسة في مجملها تحليلية تتناول، الرسالة وأسبابها، والردّ عليها من قبل المماليك في مصر، ومن أهم نتائج البحث أن ظروف مملكة غرناطة الداخلية وتكالب القوي والممالك النصرانية المجاورة لها هي التي دفعتها لطلب العون من مصر، علاوة على ضعف بلاد المغرب، وقد قدمت مصر العون العيني فقط من أموال وعتاد وسلاح، ولم تقدم دعماً عسكرياً نظراً لظروف علاقاتها الخارجية مع الممالك المسيحية، والبابوية، والدولة العثمانية، وكذلك لبعد الأندلس عن مصر.

الكلمات المفتاحية:

غرناطة - العلاقات المصرية الغرناطية - المماليك - السفارات الغرناطية إلى

مصر.



“The Sultans of Granada appeal With the Mamluk Sultans in Egypt between Response and Rejection (844-897 A.H / 1440-1492 A.D) (an analytical documentary study)”

Abstract:

The research is an analytical documentary study”, and deals with the analysis of four messages from the Kingdom of Granada in Andalusia, to the Mamluk Sultanate in Egypt, and the first of these messages was The year 844 A.H / 1440 A.D, the second in the year 855 A.H / 1451 A.D, the third in the year 868 A.H / 1464 A.D, and the third 892 A.H/ 1488 A.D, and the study in its entirety is analytical dealing with the message and its causes, and the response to it by the Mamluks in Egypt, and among the most important results of the research is that the conditions of the interior of Granada, And it was the calls of the powerful and the neighboring Christian kingdoms that prompted her to seek help from Egypt, Allow The weakness of the country of Morocco, Egypt has provided aid only kind of money and materiel and weapons, did not provide military support given the circumstances of its foreign relations, with the Christian kingdoms, and the papacy, and the Ottoman Empire, as well as from Egypt after Al-Andalus.

Keywords:

Granada - Egyptian Granada relations - Mamluks - Granada Embassies to Egypt.

مقدمة

كانت مملكة غرناطة آخر ممالك المسلمين في بلاد الأندلس، ودام عمرها نحو القرنين ونصف القرن، من إجمالي ثمانية قرون عمر الدولة الإسلامية في الأندلس، وعاشت هذه الدولة كغيرها من الدول فترات قوة وفترات ضعف، وقد نجح مؤسسها محمد بن نصر - المعروف بمحمد بن الأحمر - في ضم كل المدن الإسلامية التي لم تكن قد سقطت بعد في أيدي النصارى إلى هذه الدولة، وظلت الدولة النصرانية في غرناطة تتسيد الموقف في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ قيامها وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومع مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، حيث دب الضعف في جسد الدولة، بدأت سلسلة من الانقلابات والاضطرابات السياسية في المملكة، أدت في النهاية لضعفها ضعفاً شديداً، واتسمت الدولة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بأن غلب عليها كثرة الصراعات داخل البيت الحاكم، حتى إن سلسلة من الحروب الداخلية قد دارت بين أمراء بني الأحمر، وهو ما أضعف قوة المملكة بشكل كبير، وجعلها مطمعا ولقمة سهلة في أيدي أعدائها من الممالك النصرانية المتربصة بها بكل قوتها لتتمكن من السيطرة على البلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

وفي الوقت الذي كان فيه الضعف يدب في مملكة غرناطة، كانت كلمة النصرانية ترتفع بقوة مملكتي قشتالة وأراجون، بعد أن نجحا في التوسع على حساب الدولة الإسلامية، فالتسعت رقعتهما، وقوى اقتصادهما، ووجهت كل منهما القوة نحو المسلمين تستولي على أملاكهم، علاوة على مملكة البرتغال التي قامت بمجملها على حساب الأملاك الإسلامية، وبتحاد مملكتي قشتالة وأراجون في



مملكة واحدة بزواج الأمير فرناندو ولي عهد مملكة أراجون من الأميرة إيزابيلا ولية عرش مملكة قشتالة، وبتولي كل منهما عرش مملكته، اتحدت المملكتان في قوة واحدة، موجهة ضد المسلمين، وسيفاً مسلطاً على رقابهم.

وكانت أنظار المسلمين في بلاد الأندلس تتجه في ظل هذه الظروف ودون تردد لطلب العون من إخوانهم في العدو المغربية، وتزامن مع قيام مملكة غرناطة قيام مملكتين في بلاد المغرب هما الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط، ثم لحقت بهم دولة بني مرين في المغرب الأقصى بعد ذلك.

خاضت القوات المغربية الكثير من الحروب على أرض بلاد الأندلس في عصر الدولة النصرية، ودافعت عن ترابه مرات عديدة، وظلت العدو المغربية، وبخاصة دولة بني مرين السند القوي لبني الأحمر في الأندلس.

ومع منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ومع تزامن الحروب الداخلية وضعف مملكة غرناطة، تزامن معه ضعف في بلاد المغرب، وبدأ السند الأقوى لبني الأحمر وهم بنو مرين في الانحدار والضعف، الأمر الذي حتم على المسلمين في بلاد الأندلس قرب منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي البحث عن داعم جديد من البلدان الإسلامية يكون السند للدولة النصرية والعون الذي تستند عليه كلما احتاجت لذلك.

ووقعت أعين حكام مملكة غرناطة على القوة الأكثر تأثيراً في أحداث العالم الإسلامي في تلك الفترة، وهي دولة المماليك في مصر، والتي كانت تمثل القوة الإسلامية في مصر والشام، لما لها من ثقل في العالم الإسلامي، كقوة عسكرية واقتصادية، فبدأوا يتوجهون لطلب العون والمدد منهم.

وهذا البحث يتناول بالتحليل والدراسة تحليل أربع من الرسائل الغرناطية التي وجهها حكامها لطلب النجدة من دولة المماليك في مصر مع قرب منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وحتى سقوط المملكة، ومدى الاستجابة لهذه الرسائل.

وقد اقتضي البحث تقسيمه لثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الرسائل، ويتناول بالرصد الأربع رسائل من مرسلتهم، وتحليل مضمونهم من خلال الوثائق التي تناولت هذه الرسائل.

المبحث الثاني: الأسباب، ويتناول الظروف الداخلية والخارجية التي ألمت بها المملكة في تلك الفترة، واضطرت كل سلطان من السلاطين الأربعة إرسال رسالة يطلب فيها العون والمدد من المماليك في مصر.

المبحث الثالث: بين الاستجابة والرفض، ويتناول مدى استجابة سلاطين المماليك في مصر لطلب النجدة من سلاطين الأندلس، وأهم الظروف التي أحاطت بكل رسالة عندما وصلت إلي سلاطين مصر.

وأنهي هذا البحث بخاتمة ترصد فيها الباحثة أهم ما توصلت إليه من نتائج لهذا البحث، وقائمة بأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمد عليها البحث.

أولاً: الرسائل:

كانت أولى الاستغاثات الغرناطية بسلطنة المماليك في مصر، هي طلب سلطان غرناطة العون من السلطان المملوكي جقمق^(١) (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م)؛ فقد أرسل رسالة بهذا الشأن حملها سفارة ضمت وفدًا غرناطيًا، ومصدرنا الأساسي في هذه السفارة ما ذكره المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك في أحداث شهر رجب لعام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م بقوله "... وفي الاثنين رابع عشر رجب ورد كتاب الغالب بالله عبد الله بن محمد بن الأمير أبي الجيوش نصر..... متملك أغرناطة من الأندلس، يتضمن ما فيه المسلمون بغرناطة من الشدة مع النصارى أهل قرطبة وأشيلية، ويسأل النجدة..."^(٢)

وعلى الرغم من أن المقرئ لم يذكر عن السلطان الغرناطي سوى أنه الغالب بالله عبد الله بن محمد بن الأمير أبي الجيوش نصر، الأمر الذي قد يحدث خلطًا عند البعض، لتشابه أسماء السلاطين في غرناطة، وبخاصة أن القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، كان قد افتقد لرواية إسلامية ترصد تاريخ المسلمين في بلاد الأندلس كسابقه، إلا أن المؤرخين المحدثين خلصوا إلى أنها كانت في عهد السلطان أبي عبد الله محمد الأيسر (٨٣٥ - ٨٤٨ هـ / ١٤٣٢ - ١٤٤٥ م).^(٣)

على أية حال وصل الوفد إلي القاهرة في ٢٤ رجب ٨٤٤ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٤٤٠ م، وتقابلوا مع السلطان جقمق، وقدموا له رسالة سلطانهم محمد الأيسر واعتمادًا على نص المقرئ فإن السلطان الغرناطي أطلع السلطان المملوكي على ما أحاط بمملكة غرناطة من مخاطر، وأنها تتعرض لمخطط قوى لإسقاطها، بعد كثرة اعتداءات مملكة قشتالة عليها، والغريب أن المقرئ أطلق عليهم أهل

قرطبة وأشبيلية، وهو يقصد هنا مملكة قشتالة، فسبحان مغير الأحوال فبعد أن كانتا مدينتين إسلاميتين يرمز لهما بالحضارة والمنارة الإسلامية، أصبحتا بعد السقوط يشار إلى النصرى بهما.

كما أوجز المقريري سبب السفارة برمتها في جملة واحد وهى " ... طلب النجدة.. " أي أن القصد أن تمده مصر بقوات تساعد في تحقيق النصر علي النصرى والتصدي لأطماعهم.

أما الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الأهواني الذى ناقش الرسالة بإطناب وأورد لها نصوصاً ربما لتمكنه من الاطلاع على نصوص الرسالة الأصلية، فيذكر أن السلطان الغرناطي في رسالته أخبر السلطان جقمق أن سبب لجوء المسلمين في بلاد الأندلس لطلب النجدة من مصر تحديداً، لأنه لم يعد أمامهم سوى مصر، القدرة على أن تمدن يد العون لها^(٤)، وربما كانت العبارات التي وردت في هذا الشأن القصد منها تحفيز السلطان المملوكي على تقديم العون.

كما أن الرسالة كانت واضحة في طلبها نوع العون، فقد كان العون هنا محدداً بالعون العسكري، فإن لم يكن ذلك في استطاعة الجانب المصري، يمكن استبدال الدعم العسكري بالدعم العيني من مال وسلاح^(٥).

كما يذكر الأستاذ الدكتور الأهواني أن الوفد عندما قابله السلطان المملوكي بالاعتذار عن الدعم العسكري لظروف المملكة، تحدث إليه أحد الوفد قائلاً " ... يا مولانا السلطان - نصركم الله - أنت كبير الملوك والسلاطين وخدام الحرمين الشريفين، ولم نجى إلا إلى حضرتكم، وحاشاك أن تردنا خائبين^(٦). وكلها عبارات جاءت أيضاً لتدل على وجوب المساعدة لضيق الحال لمواجهة النصرى.

ويعاود الوفد مرة أخرى الإلحاح في طلب العون والمدد من السلطان المملوكي عندما أبدى اعتذاره عن تقديم العون العسكري لبعث البلاد بقوله ".....يا مولانا السلطان إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتعنا بالمال والعدة، وما كان لله هو يحفظه. فقال: نعم أعينكم بالمال والعدة..."^(٧)

أما طلب المساعدات الثاني فكان قد أرسله السلطان الغرناطي محمد الأحنف، الذي قام بإرسال وفد غرناطي يحمل رسالة منه موجهة أيضًا إلى السلطان المملوكي جقمق (٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣ م)، وكانت مؤرخة بتاريخ ١٢ جمادى الأولى عام ٨٥٥ هـ / ١٣ يونيو ١٤٥١ م، حملها أحد التجار، ويدعى أبو عبدالله محمد البنيولي، وهو من تجار غرناطة المشهورين في تلك الفترة، وكان قد استأجر هو ومن معه مركبًا بما يبلغ قيمته ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة دينار من الذهب، للسفر والعودة، وحضر بها إلى الإسكندرية، لشحنها بما من الله عليهم من مدد وعون من المسلمين في مصر لمساعدة إخوانهم في بلاد الأندلس، والرسالة كاملة أوردها الأستاذ الدكتور أحمد دراج، في كتابه المماليك والفرنج، وهو النص الذي اعتمدت عليه الباحثة في تحليلها^(٨).

ويمكن تقسيم الرسالة التي أوردها السلطان الغرناطي للسلطان المملوكي لتحليلها والوقوف عليها لعدة نقاط مهمة:

- نظرًا لأهمية هذه المساعدات بالنسبة لغرناطة حاول السلطان الغرناطي في عبارات كثيرة استعطاف السلطان المملوكي واستمالته للاتجاه الحتمي لإتمام المساعدة، بعبارات قوية المعنى، تحقق المقصد، تحث على بذل العطاء ونجدة بلاد الأندلس، ومن العبارات التي خاطب بها السلطان جقمق: ".. الأبواب التي ظلال رعاياتها مديدة الأفياء، عالية السدول، ومكارم معاليها تفضح الغيث الكواف، وتخجل الغمام الهمول، وأعمال أغراضها الشريفة كفيلة لهذا الثغر

الغريب بإنالة القصد، وإسعاف المأمول،..... مبلغ قاصدي....."

- ثم ينتقل السلطان الغرناطي بعبارات صريحة وواضحة وقوية في معناها يطلب العون والمدد من السلطان المملوكي بقوله "... فإننا كتبنا إلي بابكم أبوابكم العزيزة،..... من حمراء غرناطة، دار ملك الجهاد بثغر الأندلس،.... وعندنا ثقة بنصر الله الذي تعودنا من صنعة الجميل ما تعودنا، وبلغنا به في إمداد كلمة الحق بهذه الديار الغربية ما أردنا... ما يسر الله من المعونة لهذا الثغر... لما يسره الله تعالى من صدقات المسلمين، ونوافل خيراتهم،... ومواهب أبوابكم العزيزة هي العطايا الفاخرة، والمنح التي توفي سعادة الآخرة...."

- بطريقة بليغة وقوية في مقصدها، لفت السلطان الغرناطي الأحنف نظر السلطان المملوكي جقمق لأمر مهم ليس من المعتاد ذكره، وربما لم تكرر في مثل هذه الرسائل التي طلب فيها المسلمون في الأندلس النجدة، ووجوب عودة المركب مجبورة خاطر، محملة بالمعونة، حينما ذكر مبلغ كراء السفينة لرحلتها إلي الإسكندرية ذهابًا وإيابًا وهو مبلغ كبير "... ومبلغ كراء المركب المذكور في سفره وعودته ثلاثة عشر ألف دينار وخمسمائة دينار من الذهب الفارسي....".

- لم ينسَ السلطان الغرناطي أن يذكر السلطان المملوكي بسبب حاجته لهذه المساعدة، وليطلع على أحوال المسلمين وما تحاط بهم من أخطار في بلاد الأندلس، وأن العدو يريد أن يحدق بهم ويستولي على أرضهم، وهم دائمًا في حالة جهاد بعبارات منها "... حتى يتم معونة هذا الوطن المستصرخ بأبوابكم المتمسك بأسبابكم... بإتمام هذا القصد وإكماله، وإسعاف غرض ثغر الجهاد وتبليغ أماله.... والوطن الذي هو من العدو قريب...."

أما الطلب الثالث فكان طلب السلطان سعد المستعين بالله^(٩) (٨٥٧ -

١٤٦٩هـ / ١٤٥٣-١٤٦٤م) من السلطان المملوكي خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦١-١٤٦٧م)^(١٠)، في رسالة مؤرخة في شهر جمادى الأولى ٨٦٨هـ / يناير ١٤٦٤م، وأرسلها له مع الشيخ أبي عبدالله محمد بن الفقيه، الذي استصرخ فيها المسلمون في مصر، واستنصرهم لنصرة إخوانهم في بلاد الأندلس، وبرر طلبه من السلطان خشقدم بوصفه أمير المؤمنين وولي المسلمين، وناصر الدين، والقائم على أصوله، وطالب فيها بضرورة إرسال المساعدات لنصرة بلاد الأندلس حتى لا تسقط في قبضة مملكة قشتالة، التي لا تكل ولا تمل من شن الغارات على الأراضي الإسلامية. والرسالة كاملة أوردها الأستاذ الدكتور أحمد دراج، في كتابه المماليك والفرنج، وهو النص الذي اعتمدت عليه الباحثة في تحليلها^(١١).

وبقراءة متأنية للرسالة يمكن استخلاص بعض الأمور المهمة، منها:

- شملت الرسالة كسالتها رسالة السلطان الأحنف للسلطان جقمق عبارات يمكن تسميتها عبارات الاستعطف واستمالة السلطان خشقدم لتقديم العون والمدد للمسلمين في الأندلس، ومنها "... الأبواب التي اعتلى في العز معراجها.... وإمدادها طريق الخيرات... الكريم الجواد، المانح الواهب.... غيث الجود.... وأسعفت من إنالته للراغبين الرغائب....يعتمد (المستعين) أبوابكم التي يلقى عصا التسيار حول مشارعها ركب المعيج، وتطوف الآمال بكعبتها طوف الحجيج.... فإننا كتبنا لأبوابكم التي تشيد لها الصيت الحاصل، وامتد نوالها المتواصل، وافترقت بأسباب الطغاة منها الفواصل...وعندنا من التعظيم لسلطانكم ما لو وصفناه لاستوعب القريض، والتصريح والتعريض، ومن الشناء على تلكم الأبواب ما لو استودعناه صد الجو لعطر أفقه العريض....
- إبراز دور مصر الجهادي وربطه بالجهاد في الأندلس؛ فالجهاد في سبيل الله كل لا يتجزأ ومن هذه العبارات "... وعلم بإرشادها وتأييدها للجهاد (يقصد

أبواب خشقدم)..... وإمداده (خشقدم) للجهاد معلوم في سبيل الله معروف.....
هازم الفرنج والترك والتتار (خشقدم).....

- ثم يبرز السلطان المستعين بالله الدور الجهادي لمملكته ضد النصارى في الأندلس، وأنه الذي يدافع عن الإسلام والمسلمين في تلك النواحي، ويخوفه من أن العدو (قشتالة وأراجون) يريد أن يستأصل شأفة المسلمين هناك، وأن الجهاد ضدهم، وحرهم مستمرة لا تتوقف، وأن البلاد الإسلامية تتناقص كل يوم، وأن الشرك قد طوقها من كل جانب، ومن تلك العبارات: "... بحمراء غرناطة دار ملك الجهاد بالأندلس، القطر الوحيد الذي لم يبق فيه من التوحيد غير الدماء، أمده الله في الأرض بمدد ملائكة السماء، وتداركه بكشف داهيته الدهماء..... ولنصر الله متأملة.... فقد استقر في علومكم... وتمكن في أسمع سلطانكم العزيز على بعد المكان ما هذا القطر (غرناطة) الغريب عليه من مدافعة العدو الكفور، ومكافحة جيشه الموبور.... واشتباك مع الكافرين الذين عمروا الحزون والسهول، حتى أذهلوا مع قلتنا القلوب والعقول... نحن والله مقيمون في سفظ واحد مع الحيات (الممالك المسيحية) متعرضون لسهام المنيا.... هذه الجزيرة قد أوهن الشرك قواها، وأخاف الكفر مثلها، فطرق ديارها، هذا العدو المشرك صاحب قشتالة - قصمه الله - في كل عام يهيج على بلادنا وثورنا....".

- ينتقل السلطان المستعين للغرض الأساسي من الرسالة وهو طلب المساعدة، ويطلب ذلك بعبارات كافية مستفيضة منها "... ونستمنح بها الإمداد (أبواب خشقدم) متوكلين على الرب الذي يرد صدر الكفر كطيماً... ومن يتوكل على الله فقد فاز فوزاً عظيماً...." ونحن نستغيث بنصرتكم فنقول يا ولي المسلمين تقطع بمعونتكم أواصر الكافرين،..... فالمعونة المعونة، والبدارَ البدارَ، بما مكنكم الله تعالى منه،.... فقد أحوج الافتقار والاضطرار (ضعف

إمكانيات المملكة الاقتصادية).... يُبْلَغ (حامل الرسالة محمد بن الفقيه) كل ما تبذلونه في سبيل الله لهذه الجزيرة..."

- كما أن السلطان المستعين أراد بطريقة غير مباشرة أن يلفت نظر السلطان خشقدم أنه من عواقب عدم مساعدتهم ستسقط بلادهم في أيدي النصارى، وهو أمر ديني بحت، فالأمر هنا من وجهة نظره لم يُعَدُّ يتعلق بالدولة النصرانية في غرناطة، إنما أضحى يتعلق بشكل كامل بالدين الإسلامي، وأن الأمر بات وشيكاً، واقترب السقوط إن لم تمتد لهم يد العون و".... وعلى التوالي من الأيام والمرور (هجوم العدو) من استئصال هذه الكلمة، والاستيلاء على نفوس هذه الأمة المسلمة، ليرد المساجد بيعاً، ويملك البلاد زمراً من الكفر وشيعاً، يعطلون من مجال التوحيد الفسيح، ويعلنون بالثليث،.... فالدين هنا في خطب مهول،.... وجنحت الشمس للاصفرار (اقترب السقوط).... فوهت القوى، وترادفت البلوى، وعظمت الشكوى، وضاق المجال، ومنت الآمال، وأعوز الاحتيال، فيالله ويا للمسلمين..."

ولم ينس السلطان الغرناطي المستعين أن يحيط علم السلطان المملوكي بما قامت به مملكة قشتالة في حربها ضد المسلمين في السنوات الأخيرة، ورصد له بطريقة سلسة، نتيجة الحرب التي درات في العام الماضي فقط، أي العام الذي سبق إرسال الرسالة مباشرة، من تملك العدو واستيلاء قشتالة على جبل طارق^(١٢)، وما له من أهمية إستراتيجية، أعطت العدو قوة في حربه ضد المسلمين، وأراد بذلك أيضاً أن يقول له أن الباب الوحيد أمام المسلمين في بلاد الأندلس هو باب مصر بعد أن قطع استيلاء العدو على جبل طارق الباب أمام نجدات المغرب التي لطالما اعتمدت عليه في حربها ضد النصارى ".... هذا العدو (ملك قشتالة).... تملك في العام الفارط (٨٦٧هـ/ ١٤٤٣م) مدينة جبل

الفتح من بلادنا، وهو محل الفتح الأول، والمعقل الذي عليه الاعتماد والمعول وأزال عنه كلمة الإسلام، وعمر أذانه بالنواقيس، ومساجده بالأصنام، وملاًه بقوم يعبدون أوثانهم، ويحكمون صلبانهم... وفي العام المذكور (٨٦٧هـ/١٤٤٣م) استولى على حصن اللقوق..... والآن (وقت الرسالة) استولى على حصن أرجذونة...".

أما الاستغاثة الرابعة لطلب نجدة المسمين في بلاد الأندلس من إخوانهم في مصر المملوكية، فكانت من السلطان أبي عبدالله محمد بن سعد المستعين بالله المعروف بأبي عبد الله الزغل^(١٣)؛ فقد طلب العون من السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)^(١٤)، وهذه الرسالة مؤرخة في ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ/ نوفمبر ١٤٨٧م، ومرجعنا فيها لما كتبه عنها المؤرخ المعاصر للأحداث ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور^(١٥)، فهو المصدر الأساسي لهذه الرسالة، والتي ذكرها في أحداث ذي القعدة عام ٨٩٢هـ / أواخر ١٤٨٧م، قبل سقوط مملكة غرناطة نهائياً والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس بخمس سنوات فقط.

ومع أن ابن إياس لم يذكر لنا تفاصيل الرسالة ونصها، إلا أنه بعد اطلاعه عليها ذكر أن السلطان الغرناطي طلب من السلطان المملوكي قايتباي أن "... يرسل إليه تجريدة (حملة عسكرية) تعيينه على قتال الفرنج (قشتالة وأراجون)، فإنهم قد أشرفوا على أخذ غرناطة، وهو في المحاصرة معهم...".

وعلى الرغم من أن ابن إياس لخص نص الرسالة في سطرين اثنين، فإن المتفحص فيهما يستخلص عدة ملاحظات مهمة، منها:

- تحول العون والمدد التي كانت تطلبه غرناطة قبل ذلك من دعم عيني

إلى تجريدة عسكرية، لخطورة الوضع في بلاد الأندلس، فلم تعد المعونات العينية تلزم مع شدة الضربات النصرانية الموجهة، وبعد سقوط العديد من المدن الكبرى، فنحن في عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م، وكانت قد سقطت مدن مهمة كبرى في بلاد الأندلس.

- يؤكد ما سبق عبارة ابن إياس بقوله "... قد أشرفوا على أخذ غرناطة..". فهي تشير إلى أن العدو كان في فترات سابقة قد استولى على أغلب المدن الأندلسية الكبرى^(١٦)، ولم تعد هناك مدن أندلسية كبرى سوى القليل، وعلي رأسها غرناطة، عاصمة الدولة النصرانية، يعني سقوطها سقوط الدولة الإسلامية نهائياً في بلاد الأندلس.

- كما تشير تلك العبارة أيضاً إلى اضطراب أحوال الأندلس، ولفظ أشرفت هنا يقصد به أن المسألة باتت محسومة للممالك النصرانية، وأن الأمر بات وشيكاً، وهو الأمر الذي تحقق بالفعل تصديقاً لهذه الرسالة بعد مرور خمسة سنوات فقط من إرسالها في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، بتسليم غرناطة العاصمة.

- كما أشار السلطان الغرناطي في رسالته إلي مسألة مهمة للغاية في أحداث السنوات الأخيرة من عمر المملكة، وهي التي تم الإشارة إليها بعبارة "... وهو محاصر معهم.."، ومن المؤكد أنه يقصد هنا حصار مدينة مالقة، التي تعتبر من أهم مدن المملكة، فهي العاصمة الثانية لها بعد غرناطة، والتي تم ضرب الحصار عليها من القوات النصرانية براً وبحراً.

وإذا كانت رسالة السلطان الغرناطي قد وصلت مصر بعد ثلاثة أشهر من سقوط مالقة، وربما تساءل البعض هل حقاً كان المقصود حصار مالقة في عبارة "... وهو محاصر معهم..." أم مدينة أخرى، ولماذا تأخرت الرسالة ثلاثة أشهر؟

مع العلم أن الرسالة مرسلتة أثناء الحصار، وأن حصار مالقة كان قد استمر مدة شهرين من جمادى الثانية سنة ٨٩٢هـ / يونيه ١٤٨٧م، حتى يوم ٢٦ شعبان سنة ٨٩٢هـ / ١٨ أغسطس ١٤٨٧م^(١٧).

إلا أن المدقق في أحداث تلك الفترة يجد أن السلطان الغرناطي كان قد أرسل على رأس هذه السفارة الفقيه ابن الأزرق (٨٩٦هـ / ١٤٩٠م)، وقد استغرقت الرسالة مدة أطول حتى وصلت مصر، وذلك لأنها لم تكن سفارة موجهة إلى مصر مباشرة، بل كان قد ذهب إلى تونس لطلب النجدة من الدولة الحفصية، وكان سلطانها عثمان بن محمد بن أبي فارس، وكان أن مات في تلك الأثناء، وحدثت فتنة في تونس، فتوجه ابن الأزرق إلى مصر ووصل في ذي القعدة عام ٨٩٢هـ / أواخر ١٤٨٧م^(١٨).

ثانياً: الأسباب:

كانت هناك أسباب داخلية وأخرى خارجية دفعت مملكة غرناطة لطلب العون والمدد من المماليك في مصر، فكانت كلما تعرضت مملكة غرناطة لأزمات سياسية في علاقاتها الخارجية لجأت للخارج، وقد سبقت في كل مرة أن طلبت فيها مملكة غرناطة الغوث والمدد من سلاطين المماليك في مصر لظروف اضطررتها لذلك.

ومن المعروف أن مملكة قشتالة كانت صاحبة الباع الكبير في الحرب ضد المسلمين في بلاد الأندلس، وكانت صاحبة اليد الطولى في انتزاع المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، ومن هنا لعبت الدور الكبير في توجيه سياسة مملكة غرناطة فيما يتعلق بالاستعانة بقوى خارجية حتى تتمكن من الوقوف في وجه أطماع مملكة قشتالة.

فقبل طلب السلطان محمد الأيسر العون من مصر عام ٨٤٤هـ / ١٣٤٣م، دفعته سياسة مملكة قشتالة لذلك، فرغم أنه كان قد عقد معاهدة مع ملكها خوان الثاني Juan II، في عام ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م، الذي تعهد بموجبها عدم شن الحرب على أملاك غرناطة، وحدد ملك قشتالة مدة الصلح بعام واحد فقط^(١٩)، إلا أنه لم يلتزم بهذه المدة، وبدأت قواته في شن الغارات المتلاحقة على الأراضي الإسلامية أثناء المعاهدة، فلقد أمر قواته بالخروج للإغارة على أملاك المسلمين بعد عقد الهدنة بوقت قصير، وبدأت جولات حربية بين المملكتين تارة يتنصر فيها المسلمون وتارة تتنصر قوات قشتالة^(٢٠).

ومع استمرار المناوشات والمعارك الحربية بين الجانبين، وأمام الخسائر المتتالية من الفريقين، قررا عقد هدنة بينهما، وإقرار الصلح، وأوفد الملك

القشتالي لذلك وفداً إلى بلاط غرناطة، ووافق السلطان محمد الأيسر على عقد الصلح مع قشتالة في عام ٨٤٣هـ / ١٤٤٠م^(٢١).

وبعد أن تمّ عقد الصلح بين الجانبين على النحو سالف الذكر رأى السلطان الأيسر استغلال الصلح في طلب النجدة من الخارج للتصدي لأطماع مملكة قشتالة، ومن هنا كانت سفارته إلى مصر لتحقيق هذا الغرض في عام ٨٤٤هـ / ١٣٤٣م.

كما أن طلب السلطان محمد العاشر الأحنف النجدة من السلطان جقمق، كان قد تعلق بأحوال داخلية أنهكت المملكة بسبب الصراع على الحكم داخل الأسرة الحاكمة، وللأسف دارت سلسلة من الحروب بهذا الشأن في عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م بين ثلاثة من الأمراء هم الأمير يوسف بن أحمد الطامع في عرش المملكة، وإزاحة السلطان الأحنف عن العرش، مدعوماً من أسرة بنى السراج Abencerrajes^(٢٢) وزراء غرناطة، ومدعوماً أيضاً من الملك القشتالي خوان الثاني، الذي أمدّه بقوات قشتالية تمكنه من دخول غرناطة، لإذكاء روح الصراع والحرب في غرناطة بقصد إضعافها والتمكن من السيطرة عليها بعد ذلك^(٢٣).

وأمام هذا الموقف قسم الأحنف جيشه إلى قسمين، قسم يتوجه للتصدي للأمير يوسف الذي قرر الزحف على غرناطة العاصمة، وجيش لشن الحرب على قشتالة نكاية في مساعدة خوان الثاني للأمير يوسف من ناحية، وضمن عدم إمداده بالمزيد من القوات وذلك في عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م^(٢٤).

إلا أن الأحداث لم تتجه كما كان يريد الأحنف فانهزم الجيش الغرناطي على مشارف العاصمة، وفر السلطان الأحنف بعد هذه الأحداث، وجلس السلطان يوسف على العرش في عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، إلا أن ذلك لم يستمر سوى عدة

أشهر، ففي ظروف غامضة دخل السلطان محمد الأحنف غرناطة وحكم المملكة للمرة الثانية أواخر عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٦ م^(٢٥).

وكان أول ما قام به السلطان الأحنف هو طلب العون من المماليك في مصر، فور عودته للحكم بإرسال وفد غرناطي يحمل رسالة منه موجهة إلي السلطان المملوكي جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م)^(٢٦).

وارتبط طلب مملكة غرناطة في عهد سلطانها سعد المستعين بالله العون من مصر ٨٦٧ / ١٤٦٢ م بحدث جليل، وهو سقوط بعض البلاد الحيوية في مملكته وعلي رأسها جبل طارق Gibraltar^(٢٧)، الذي سقط في أيدي القوات القشتالية في صفر سنة ٨٦٧ هـ / أغسطس ١٤٦٢ م^(٢٨)، والذي بسقوطه قطع الطريق علي العون من المغرب الأقصى ودولة بني مرين، مع ضعفها أيضًا في هذه الفترة وسقوطها بعد ذلك^(٢٩).

وكان السلطان سعد المستعين بالله قد أطلع السلطان المملوكي خشقدم علي أحوال مملكة غرناطة من ضراوة حرب النصاري ضدهم، وأن مملكة قشتالة استولت علي جبل طارق، وعلي حصن اللقوق في عام ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وأن قوات قشتالة في عام ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤ م قبيل إرساله لطلب النجدة كانت قد استولت علي حصن أرشذونة Archidona^(٣٠) المهم جداً في حرب المسلمين ضد النصاري، لما كان له من دور حربي لمراقبة العدو^(٣١).

كما ارتبط استغاثة السلطان أبو عبد الله محمد الزغل في ذي القعدة سنة ٨٩٢ هـ / نوفمبر ١٤٨٧ م، بالسلطان الأشرف قايتبائي بما دار في مملكته من ظروف داخلية وخارجية، فعلى مستوى الحروب الداخلية، فقد دارت رحى حرب أهلية ضروس بينه وبين ابن أخيه آخر سلاطين مملكة غرناطة أبي عبدالله محمد بن

أبي الحسن علي^(٣٢) (٨٨٧-٨٩٧هـ/١٤٨٢-١٤٩٢م)، الأمر الذي ترتب عليه انتكاسة كبيرة في مملكة غرناطة بتوجيه كل قوتها للحرب الأهلية^(٣٣).

أما بالنسبة للظروف الخارجية، فكانت مملكة قشتالة قد ازدادت في بطشها بالمسلمين في الأندلس وتكالت عليهم هي ومملكة أراجون التي كانت قد اتخذت طريقها للاتحاد في قوة واحدة بزواج الأميرة إيزابيلا Isabel ولي عهد مملكة قشتالة من فرناندو الخامس Fernando V ولي عهد مملكة أراجون^(٣٤)، ووجهتا قوتها للحرب على مملكة غرناطة والاستيلاء عليها، وكانا من أكثر المتشددين لشن حرب الاسترداد، والاستيلاء على كل أملاك المسلمين في بلاد الأندلس، وبدأوا ينتزعوها الواحدة بعد الأخرى^(٣٥).

وأثناء حصار القوات القشتالية لمدينة مالقة ٨٩٢هـ / ١٤٧٨م، لم يرَ السلطان الزغل أمامه سوى الاستغاثة بالقوة الإسلامية التي يمكن أن تقدم له العون والمدد، وهي قوة المماليك في مصر فأرسل إلى السلطان الأشرف قايتباي^(٣٦).

ثالثاً: بين الاستجابة والرفض:

يتناول هذا المبحث بالتحليل ما كان من استجابة سلاطين المماليك لرسائل سلاطين غرناطة، ومدى جدواها في تحقيق الهدف من إرسالها، وهل عادت فعلاً باستجابة؟ أم أنها ردت بلا تلبية؟ وإن كانت ردت دون استجابة فما السبب؟ وإن كانت قد وافقت علي بعض الطلبات ورفض الآخر، ماذا دهاها لذلك؟

أما ردّ السلطان المملوكي جقمق على رسالة محمد الأيسر، فقد غلبت الظروف التي كانت تمر بها مصر على الرد على رسالة السلطان الغرناطي، ورد السلطان المملوكي علي رسالة السلطان الغرناطي برسالة، حملها معه سفير من مصر، وحملت عبارات الود والحب، إلا أنه اعتذر له فيها عن تقديم العون العسكري للمسلمين في الأندلس، أن مصر بعيدة عنها، ووعد بإرسال رسالة منه للسلطان العثماني مراد الثاني، يطلب منه فيها إرسال النجدة إلي بلاد الأندلس لغوثهم^(٣٧).

كما يذكر الأستاذ الدكتور الأهواني أن الوفد عندما قابله السلطان المملوكي بالاعتذار عن الدعم العسكري لظروف الملكة، طلب الوفد المدد العيني، ووافق عليه^(٣٨).

والسؤال هنا لماذا رفض السلطان جقمق طلب المدد العسكري، ووافق على المدد بالمال والسلاح؟

والناظر للظروف التي كانت تمر بها مصر في تلك الفترة، يجد أن السلطان جقمق كان قد أرسل حملته الأولى إلي رودس^(٣٩) وباءت بالفشل في عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م قبيل وصول رسالة السلطان الغرناطي^(٤٠)، وفي تلك الفترة كان يستعد لإرسال حملته الثانية، فكيف يكون من المتاح توفير أسطول لنقل الجند

إلى الأندلس، وكذلك مدهم بجند عليها، ومصر في أمس الحاجة إليها^(٤١).

كما أنه من وجهة نظر السلطان جقمق، أن بلاد الأندلس بعيدة، ويفصل بينها وبين مصر مسافات في البحر، كما أنه ليس من الحكمة أن يخاطر بقواته ويرسلها في مياه البحر المتوسط الذي يسيطر عليه ألفونسو الخامس Alfonso V (٨١٩ - ٨٦٣ هـ / ١٤١٦ - ١٤٥٨ م)^(٤٢)، ملك أراجون، الذي شن الحرب علي جزر البحر المتوسط، وهيمن علي مياهه بشكل كبير، فدخل في عداء مع دولة المماليك في مصر، بعد أن كانت طيبة..^(٤٣).

ومع رفض السلطان المملوكي تقديم العون العسكري للأندلس، إلا أنه وعد الوفد بالكتابة للسلطان العثماني مراد خان الثاني الغازي (٨٢٤ - ٨٥٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١ م)^(٤٤)، يطلب منه ضرورة مد يد العون ومساعدة المسلمين في الأندلس، فلما طلب منه الوفد مدهم بالمال والعتاد^(٤٥).

ولا يمكن أن نغفل ضمن ردود السلطان جقمق الرسالة التي أرسلها للسلطان الغرناطي، والتي حملت في طياتها أن العلاقات بينهما علاقات ود".... هو الكتاب المطيف، بل البحر الذي يقذف درأ، ويرفع سريراً ويطلع قمراً، ويطول أوضاحاً وغرراً..."، وأنه يسأل الله لهم النصر عل عدوهم "... والله تعالى يجمع بسعادته كلمة الإسلام والمسلمين، وينصره على الأعداء، ويسد عن حوزته الشريفة أبواب الردى...."، وأنه كذلك حملهم الرد على طلب العون مشافهة للسلطان الغرناطي "... وقد جهزنا إلي الحضرة فلان وحملناه من المشافهات ما ينديه إلي محله الأسنى، وملكه الذي حسن صورة ومعنى..."^(٤٦).

والسؤال هنا هل بالفعل أرسل السلطان المملوكي جقمق العون من مال وسلاح للمسلمين في بلاد الأندلس؟ والرد أنه بالفعل أوفى بوعده لهم، وليس

ثمة دليل أقوى على ذلك مما ورد في رسائل نجدة تالية، تؤكد أن السلطان كان قد أرسل المساعدات التي وعد بها، فمما ورد في رسالة السلطان الأحنف إلى السلطان جقمق في عام ٨٥٥هـ / ١٤٥٠م، وهي رسالة جاءت بعد رسالة الأيسر للسلطان جقمق بعشر سنوات وورد فيها عبارات تدل على أنه كان قد أوفى بوعده وأمدهم بالمال والسلاح " وعندنا ثقة بنصر الله الذي تعودنا من صنعة الجميل ما تعودنا... ولا زالت آيات سعده بإنجاز أمله وقصده تتلى على تداول الأيام وتعاقب الأعصار..."^(٤٧).

أما الرد على الرسالة الثانية لطلب النجدة والتي أرسلها السلطان الأحنف في عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م، وكان قد طلب فيها من السلطان جقمق مده بالمساعدات العينية، فقد حملت السفينة التي كانت قد استؤجرت لذلك بالمساعدات من مصر لبلاد الأندلس، إلا أنه يبدو أنها كانت قد وصلت في مدة طويلة فقد استمرت لمدة طويلة، وكانت القوات الغرناطية في حالة حرب مع قشتالة، وكانت تحتاج المساعدات على أقصى سرعة، ومع استمرار الضغط القشتالي، وعدم وصول مساعدات خارجية من الشرق أو الغرب، انهزمت القوات الغرناطية أمام جيش قشتالة في عدة معارك فاصلة ترتب عليها خسارة المسلمين مساحات واسعة^(٤٨).

كما يؤكد مساعدة مصر للمسلمين في الأندلس استجابة لطلب السلطان الأحنف، أن السلطان سعد المستعين كان قد أشار في رسالته، عام ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م إلى المعونة التي قدمتها لهم السلطان جقمق ردًا على طلب السلطان الأحنف، وأنهم ممتنون لدور مصر^(٤٩).

أما رد السلطان خشقدم على طلب النجدة من قبل السلطان سعد المستعين بالله عام ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م، فقد بادرت مصر بتقديم العون والمدد من أسلحة وعتاد لنصرة إخوانهم المسلمين في بلاد الأندلس، لكن لم تكن لهذه المعونة

فائدة تذكر أمام التحديات التي واجهتها غرناطة داخلياً وخارجياً في تلك الفترة، وبخاصة الحرب الداخلية في غرناطة بين السلطان سعد المستعين بالله وابنه أبي الحسن علي والتي انتهت بوفاة الأب وتولى الابن الحكم^(٥٠).

أما عن ردّ السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م) على استغاثة السلطان أبي عبدالله محمد الرغل، في سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م، فقد أرسل السلطان قايتباي إلى كل من البابا أنوسنت الثامن (٨٨٨-٨٩٧هـ / ١٤٨٣-١٤٩٢م)، والملك فرناندو الخامس وزوجته إيزابيلا، والملك فرديناند الأول ملك نابولي واختار لها رئيس دير القديس فرنسيس في بيت لحم، ويدعى الراهب أنطونيو ميلان Antonio Milan، وكان قشتاليّاً، وطلب منه وأحد الرهبان الإيطاليين، القيام بمهمة دبلوماسية غاية في الأهمية، كمبعوث من الأشرف قايتباي للملوك والهيئات سالفة الذكر وطلب منهما أن يقوموا بتسليم رسائله إلى كل من البابا أنوسنت الثامن، والملك فرناندو الخامس ملك أراجون، وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة، والحقيقة أن اختيار الملك فرديناند الأول ملك نابولي وإرسال رسالة له، كان لقربته من الملك فرناندو الخامس ملك أراجون، حتى ينهيه عن ممارسة الاضطهاد ضد المسلمين في الأندلس والكف عن مهاجمة أراضيهم، أما اختيار البابا، فقد أراد السلطان قايتباي أن يوصل رسالة مهمة للبابا مفادها أن الاستمرار في مطاردة المسلمين وشن الحرب ضدهم في بلاد الأندلس سيقابله اضطهاد للنصارى والرهبان الفرنسيين وغلغ كنيسته القيامة، وغيرها من الكنائس والأديرة في فلسطين، وكان هذا التهديد القصد منه ضغط الباباوية على استخدام نفوذه الروحي في إقناع كل من الملكة إيزابيلا وزوجها الملك فرناندو بالكفّ عن شنّ الحرب ضد المسلمين في بلاد الأندلس، والكفّ عن اضطهاد المسلمين ممن سقطت مدنهم في قبضتهما^(٥١).



وبالفعل وصلت رسالة السلطان قايتباي لبابا روما وتسلمها من الرسولين، وكانا قبلها قد قاما بتسليم رسالة ملك نابولي إليه، ثم اتجها إلي مقر إقامة الملك فرناندو وزوجته إيزابيلا في معسكرهما أثناء حصار مدينة بسطة في أواخر عام ١٤٨٩هـ / ١٤٨٩م، وقرأ عليّ مسامعهما رسالة قايتباي، ورسالة كان قد تسلمها من البابا لتوصيلها إليهما^(٥٢)، ورسالة أخرى من ملك نابولي يلومهم عليّ أعمالهم ضدّ مسلمي الأندلس، لأن في ذلك خطر عليّ مسيحي الشرق "... ولأن المغاربة كانوا مخالفين في المذهب فليس من الجائز الإساءة إليهم بدون سبب عادل، وإن كان ملوك قشتالة لا يصبرون عليّ أدنى إساءة من مسلمي إسبانيا، فليس من اللائق لمقامهم أن يأتوا أقلّ عمل من شأنه أن يجرّ عليّ النصرانية وبالألأ..."^(٥٣)، مع العلم أن ملك نابلي لم يكن متحمسًا للنصرانية أكثر من غيره كما يدعي، وإنما كان - حسبما ذكر الأستاذ محمد عبدالله عنان - يخشي سقوط غرناطة فتتم مطالبته بعرش نابلي، الذي طالما اعتقد ملك أراجون أنه مكمل لعرش أراجون^(٥٤).

ولم تكن هذه الرسائل لتؤتي ثمارها أمام اقتناع الملكة إيزابيلا وزوجها المتشددين للنصرانية الكاثوليكية إلى أقصى حد ممكن، بضرورة السيطرة عليّ كل بلاد المسلمين بل وطردهم من هذه البلاد، وواصل الزحف والهجوم واستمرا في حربيهما وسقطت العديد من المدن الواحدة تلو الأخرى أمام حصارهما، حتى تمكنا من دخول غرناطة نفسها في عام ١٤٩٧هـ / ١٤٩٢م^(٥٥).

كما أنه نظرًا لحسن علاقات الدولة المملوكية بمملكة أراجون، والتي كانت انعكاسًا طبيعيًا للعلاقات التجارية بين البلدين، والتي دارت بشأنها عدة مكاتبات بين الجانبين، وبالتالي فإن حسن العلاقات مع أراجون ينعكس عليّ قشتالة بعد الاتحاد بين المملكتين؛ لذا دارت مراسلات بشأن قيام علاقات تجارية مصرية مع

قشتالة وأراجون بعد ذلك، ففي عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م طلب الملك فرناندو من البابا السماح له ببيع كميات القمح إلي السلطان الأشرف قايتباي، وذلك لإطعام المسلمين في بلاد الشام المهتدين بالمجاعة وقتها^(٥٦). وفي عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م - وهو العام الذي سقطت فيه غرناطة - وربما كان الهدف تحييد المماليك عن لصراع بشكل كامل، أرسل الملك الكاثوليكيان بيتر مارتير Beter Martyr إلى السلطان قايتباي بقصد توطيد العلاقات بين الجانبين^(٥٧).

وبين المؤيد لموقف مصر والمعارض تقف أحوال مصر في تلك الفترة لتفرض هي الأخرى نفسها على الساحة السياسية، وتتحكم في سياسة مصر الخارجية وبخاصة في شأن إرسال قوات محاربة إلي بلاد الأندلس للتصدي لأطماع مملكتي قشتالة وأراجون، حيث إن من يطلب من مصر القيام بالدور الحربي بهذا الشكل، ينسى أو يتناسى - إن صح التعبير - أن مصر كانت قد دخلت في مرحلة الحسم مع الدولة العثمانية، وأن الحروب كانت على أشدها في تلك الفترة، فقد كانت الحرب العثمانية المملوكية قد بدأت في عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م، وخاضت جولات عديدة حتى عام ٨٩٥هـ / ١٤٩١م، والمتفحص فيها يجد أنها ستكون حرباً مستمرة، ودائماً ما كانت الدولة المملوكية في مصر تخشى أن تكون نهايتها قد كتبت على أيدي العثمانيين، لذلك فقوة جيشها، وسلامته، هو الضمان الوحيد للبقاء والصمود أمام هذه القوة.

علاوة على ذلك فإن الدعم العسكري عن طريق البحر كان أمراً مستحيلاً أمام السيطرة النصرانية على البحر المتوسط، وبخاصة بعد أن استشرت الرغبة التوسعية لدى الملك الأراجوني ألفونسو الخامس، وشنه الحرب علي جزر البحر المتوسط وإخضاع الكثير منها، وفرض السيطرة الأراجونية علي مياهه، لذلك كان الدعم المقدم هو دعم عيني من أموال وسلاح وعتاد.



الخاتمة

بعد دراسة موضوع " استغاثة سلاطين غرناطة بسلاطين المماليك في مصر بين الاستجابة والرفض (٨٤٤-٨٩٧هـ / ١٤٤٠-١٤٩٢م) (دراسة وثائقية تحليلية)، وبعد الانتهاء من تحليل الأربع رسائل، ورصد أسبابها، وما أحاط بذلك من ظروف داخلية وخارجية، وأهم ما ورد بها من ردود على هذه الرسالة من استجابة لبعض الطلبات، ورفض البعض تبين عدد من النتائج المهمة، منها:

- السبب الأساسي لاتجاه سلاطين غرناطة لطلب العون من المصير يرتبط بأمرين، الأول يتعلق ببلاد المغرب، والثاني بمصر، أما ما يتعلق ببلاد المغرب فإن العون والمدد الذي استمر قرابة القرنين من الزمان يتدفق من بلاد المغرب لنصرة المسلمين في بلاد الأندلس عصر بني الأحمر، كان قد أصابه الفتور، ويمكن القول إن ذلك يرتبط بأحوال كلا البلدين، فمملكة غرناطة لم تعد مملكة غرناطة التي كانت عليه من قبل، وإنما أضحت متشرذمة، إن كان يشغلها الجهاد في سبيل الله مرة، ورد أطماع النصاري فإن الوصول للحكم والصراع من أجل العرش شغل رجالها ألف مرة، حتي تكرر وقوف الابن لأبيه، والرجل لابن أخيه، كما يرتبط ببلاد المغرب ذاتها، فثمة عدد من التغيرات كان قد طرأ على التركيبة السياسية بها، فبني مرين في المغرب الأقصى قد أصاب دولتهم الوهن، في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، حتي انتهى الأمر بسقوط دولتهم قبل مملكة غرناطة بثلاثين عامًا في ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م، وكان الضعف قد حلَّ أيضًا ببني زيان في المغرب الأوسط، وكذلك شهدت دولة بني حفص في المغرب الأدنى نفس الحالة علي الرغم من استمرارها تحكّم حتي بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس بكثير.

- أما ما يتعلق بدولة المماليك فالموقع الجغرافي لمملكة غرناطة يحتم

عليها إن طلبت عونًا يكون إما من المغرب الإسلامي أو من مصر بحكم أنها أقرب الأقطار الإسلامية إليها، علاوة على ذلك فإن السلطنة المملوكية في مصر والشام كانت هي الحامي للدولة الإسلامية في الشرق والغرب لقوتها، وتوليها مهمة الدفاع عن المسلمين، مع ضعف وانتهاء الخلافة العباسية، وبداية ظهور خلافة جديدة هي العثمانية، التي كانت في تلك الفترة مشغولة بالتمكين لنفسها في الشرق الإسلامي قبل الاتجاه للغرب.

- من المؤكد، ومما لا يدع مجالاً للشك قدمت السلطنة المملوكية الدعم العيني للمسلمين في بلاد الأندلس من عتاد وأموال وأسلحة وهو ما انتهى إليه البحث، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فوقت الدعم العيني كان قد ولى وانتهى، وكان المسلمون في مملكة غرناطة مع تكالب القوي المسيحية ضد وجودهم، وشنّ الحرب المتكررة عليهم، وكانت في أمس الحاجة لقوات محاربة، كما كان الدعم المريني الحربي لهم باستمرار طول تاريخهم منذ قيام المملكة، وتكرار عبور قوات مغربية إلى بلاد الأندلس للجهاد، والمشاركة في المعارك الحربية.

- كان الدعم المغربي للدولة النصرانية منذ قيامها أحد أهم العوامل التي ساعدتها في البقاء تطاحن وسط الممالك المسيحية، وربما لو لم يكن هناك هذا الدعم لما صمد الغرناطيون أمام هجمات النصارى المتكررة علي بلادهم.

- ازدادت شراسة الضربان النصرانية ضد المسلمين في بلاد الأندلس بعد أن قويت شوكة كل من مملكتي قشتالة وأراجون، واتسعت رقعة كل منهما بعد الاستيلاء علي الأراضي الإسلامية، وبخاصة بعد اتحاد المملكتين وتوحيد القوة والجهاد كله للقضاء علي الوجود الإسلامي.

- علي النقيض تمامًا في الوقت الذي تم توحيد الجهود النصرانية والاتحاد



للقضاء علي المسلمين كان التشرذم والحرب الأهلية تسيطر علي مملكة غرناطة، فالسلطان يجلس علي العرش مرتين وثلاثاً، وانتشرت الاغتيالات وحركات الخلع، والحرب الأهلية كانت أكثر ضراوة، فعجل هذا كله بسقوط دولتهم.

- بسبب الحرب والفتنة في المملكة لم يكن ليظهر أي دعم عيني أو حت عسكري لو تمّ، بسبب هذا التشرذم في المملكة وانتشار الحرب الأهلية وتكرارها، وضعف المملكة داخلياً، الأمر الذي ترتب عليه ضعفها خارجياً.

- سيطرت السياسة الخارجية للمماليك علي دعمها لبلاد الأندلس، فكان اعتذار السلاطين تارة لبعء المسافة، وتارة لسيطرة غرماء لهم علي مياه البحر المتوسط، وتقديم الدعم العسكري كان من وجهة نظرهم يشكل خطراً محدقاً بقواتهم، إلا أنه في الحقيقة شهدت تلك الفترة تقارباً كبيراً في العلاقات القشتالية والأراجونية من جهة، والمملوكية من جهة أخرى، وتشهد الرسائل المتبادلة علي ذلك، كما أن الحرب مع العثمانيين والتي كانت قد دخلت مرحلة الحسم كانت قد سيطرت علي جهود المماليك في تلك الفترة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأزرق: (أبو عبدالله حمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (ت ٨٩٦هـ/ ١٤٩١م): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق، علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- ابن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م): صفحات لم تنشر من بدائع الزهور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ هـ، تحقيق د. محمد مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ابن الخطيب: (أبو عبدالله محمد (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق د/ أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣.
- السخاوي: (محمد بن عبدالرحمن السخاوي شمس الدين ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- السيوطي: (جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس،



الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١ م.

- المقرري: (شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م): نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

- المقريري: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧ م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله (ت ٦٢٦ هـ): معجم البلدان دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٦ م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربية:

- إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، نشر محمد أحمد بسيوني، الإسكندرية، ١٩٦٨م.
- أحمد مختار العبادي: فترة مضطربة في تاريخ غرناطة كما يرويها شاهد عيان، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع، ١٩٥٩م.
- أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
- سحر السيد عبدالعزيز سالم: سحر السيد عبدالعزيز سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وبعد سقوطها، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية بعنوان الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة (١٤٩٢-١٩٩٢م)، زغوان، تونس، ١٩٩٣م.
- بنو سراج وزراء بني نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية، ضمن بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة النهضة،



- القاهرة، ١٩٥٦م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
 - قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧م.
 - عبادة كحيلة: المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٧م.
 - عبدالرحمن علي الحجى: تاريخ الأندلس التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م
 - عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤هـ)، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ١٦، مايو ١٩٥٤م.
 - عبدالمنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب عبر العصور، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م.
 - ليونارد باتريك هارفي: تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي، والثقافي، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، منشور ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م.
 - محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس بيروت، لبنان، ط ٣، ٢٠١٣م
 - محمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ١٩٣١م

- أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة، مجلة أدب ونقد، القاهرة، عدد ٨٨، مجلد ٩، ديسمبر، ١٩٩٢م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي مصطفى، القاهرة، ١٣١٤هـ.
- مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد رضا المصري، لبنان، ١٩٩٥م.
- يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بنى الأحمر، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت ١٩٨٢م.
- يوسف كاظم جعيل: العلاقات السياسية لمملكة غرناطة في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلاد، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، العراق، ٢٠٠٤م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

- Fernando de Pulgar: Guerra de Granada, en Coleccion de Cronicas Espanolas- Juan de Mata Carriazo, Vol. VIII, Madrid, 1946
- 1500,London, 1990. - L.P. Harvey: Islamic Spain1250-
- M. A. Alarcón y R. Garcia de Linares: Los Documentos Árabes Diplomáticos Del Archivo de la Corona de Aragón- Madrid y Granada, 1940
- Migule, Lafente Alcentra, historia de Granada, Granada ,1904..
- Rachel Arié:El Reino Nasri de Granada (1232-1492)-Madrid, 1992
- Seco, L. de Lucena: Mahammad IX Muhammad IX Sultan de Granada – Granada, 1978.
- William Hickling Prescott: History of the Reign of Ferdinand and Isabella -London, 1895.

الهوامش:

(١) السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد محمد جقمق الظاهري: أصله من الأتراك الشراكسة، كان قد اشتراه الأمير الأشرف سيف الدين إينال، وقدمه هدية للسلطان الظاهر برقوق، فأعتقه وصار من رجال دولته، وكان العزيز يوسف بن الأشرف برسباي قد تولي العرش بعد والده، ثم قامت مجموعة من المماليك فخلعت العزيز يوسف وتولي السلطان جقمق في عام ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، رغم كبر سنه وتخطي الثمانين، طلب من ابنه المنصور أن يتولي العرش، ومات بعدها بخمسة عشر يوماً وذلك في عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٥م انظر: ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد المعروف ابن إياس الحنفي) (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٢، ص ٢٠٣-٣٠٦.

(٢) المقرئ: (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج٧، ص ٤٦٩.

(٣) عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤هـ)، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج١٦، مايو ١٩٥٤م، ج١، ص ١١٣-١١٤؛ أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦١م ص ٧٠-٧١، وسحر السيد عبدالعزيز سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وبعد سقوطها، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية بعنوان الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة (١٤٩٢-١٩٩٢م)، زغوان، تونس، ١٩٩٣م، ج٢، ص ٩٨-٩٩.



الأيسر: محمد بن نصر بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر. لقب بأبي عبدالله تولى في عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م، وعزل عدة مرات، وتعود أحداث هذه السفارة لفترة حكمه الثالثة التي تولى فيها من عام ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م واستمر حتى عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٥ م: انظر: سحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ٩٨؛ أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧ م، ص ٤٣ - ٤٤.

(٤) عبدالعزيز الأهواني: سفارة أندلسية من غرناطة إلى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ، ص ١١٣ - ١٣٠.

(٥) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧٠-٧٣، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ٩٨-٩٩.

(٦) عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة، ص ١٠٣.

(٧) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٨) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ملحق رقم (١٠)، ص ١٨١ - ١٨٤، نقلاً عن مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، موجود في مجموعة بعنوان (مجموعة رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك وسلاطين أمراء العام الإسلامي في القرن التاسع الهجري)، ورقة ٥٨ أ، ٥٨ ب، ٥٩ أ.

(٩) هو: أبو نصر سعد بن علي شقيق السلطان يوسف الثالث. ولد في عام ٧٨٩ هـ / ١٣٩٨ م، وتولى وعمره خمسة وخمسون عاماً، وصل إلى الحكم بمساعدة أسرة بني السراج التي رفضت تولي السلطان محمد الحادي عشر الحكم منفرداً، بعد وفاة السلطان محمد التاسع الأيسر، وانفراده بعرش غرناطة،

فبايعت السلطان سعدًا المستعين. انظر: سحر السيد عبدالعزيز سالم: بنو سراج وزراء بني نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية، ضمن بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(١٠) السلطان المملوكي خشقدم: الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي، بويغ للسلطنة عام ٨٦٥هـ / ١٤٦١م بعد خلع السلطان المؤيد أحمد بن السلطان الأشرف إينال. وخشقدم هو السلطان السادس عشر للسلطنة المملوكية البرجية، وهو شركسي الأصل، لقب بالناصرية نسبة إلى أستاذه الأول «ناصر الدين محمد»، ولقب بالمؤيدي، نسبة إلى أستاذه الثاني السلطان «المؤيد شيخ». انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٦٩-٤٥٨..

(١١) أحمد دراج: الممالك والفرنج، ص ١٩١ - ١٩٩، نقلًا عن مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٦٣ ب-٦٣ أ، ٦٤ أ، ٦٤ ب.

(١٢) عن هذه الأحداث السياسية انظر ص ١٥، ص ١٥، ح ٣.

(١٣) أحد أشقاء السلطان الغرناطي أبي عبدالله محمد بن السلطان سعد المستعين بالله، وأخو السلطان أبي الحسن علي، كان قد اعتاد الخروج على السلاطين في غرناطة، فكان قد خرج علي أخيه أبي الحسن علي، ودارت الحرب الأهلية في غرناطة بين الزغل ومعه جيش قوى من مالقة وأحوازها، والسلطان أبي الحسن بجيش غرناطة النظامي، وبعد عدة حروب، رأى الزغل في عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٥م أنه من الأفضل إنهاء علي الحرب الأهلية، فسار ليلاً من مالقة إلى غرناطة وتقابل مع شقيقه، وأقر الزغل بأن أبا الحسن هو سلطان غرناطة، وتولى هو حكم إقليم مالقة، حتى عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م، كان قد تنازل له أبو الحسن



علي عن الحكم بعد أسر ابنه محمد بن أبي الحسن آخر سلاطين غرناطة، ثم خاض حرباً أهلية أخرى ضد ابن أخيه محمد بن أبي الحسن علي آخر سلاطين غرناطة. انظر: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، مجهول، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٧٥ - ٧٦؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت ١٩٨٢م، ص ٥٥-٥٨.

(١٤) السلطان الأشرف أبو النصر الظاهري سيف الدين قايتباي المحمودي الأشرفي سلطان المماليك من المماليك البرجية، اشتراه السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٨هـ / ١٤٣٥م، ثم بيع مرة أخرى للسلطان الظاهر جقمق فأعتقه، وجعله من القادة في جيشه، وتولي وظيفة أتاك العسكر عام ٨٧٢هـ / ١٤٦٩م، وفي نفس العام خلع المماليك السلطان تمبرغا وولوا قايتباي، وتلقب بالأشرف. وظل يحكم حتى عام ٩٠١هـ / ١٤٩٦م. انظر: السيوطي: (جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٠٠-١٠٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٧٠-٢٩٨، وسعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٧٢-١٧٤.

(١٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ص ٢٤٤.

(١٦) من أهم هذه المدن التي سقطت حتى ذلك التاريخ سقوط مدينة رندا Ronda عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م، وسقوط مدينة لوشة Loja عام ٨٩١هـ / ١٤٨٦م، وسقوط مدينة بلش مالقة Velez Malaga عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م، والرسالة مرسله أثناء حصار مالقة عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م. عن سقوط هذه المدن وأحداث تلك

الفترة انظر: مجهول: أخبار العصر، ص ٨٧-٩٦، وعبدالرحمن علي الحججي: تاريخ الأندلس التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م، ص ٥٥١-٥٥٥، وعبادة كحيلية: المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٧٤-٢٧٧.

(١٧) مجهول: أخبار العصر، ص ٩٧-٩٨.

(١٨) السخاوي: (محمد بن عبدالرحمن السخاوي شمس الدين ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٩، ص ٢٠، وابن الأزرقي: (أبو عبدالله حمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩١م): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق، علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج ١، مقدمة المحقق ص ١٠-١١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٤؛ سحر سالم: علاقة مصر المملوكية بمملكة غرناطة، ص ١٠٠.

(١٩) يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٥٤-٥٥، وأحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة، ص ٤٢.

Migule, Lafente Alcentra, historia de Granada, (Granada -1904), T. III, P. 151-152; Seco, L. de Lucena: Mahammad IX Muhammad IX Sultan de Granada - Granada, 1978, pp. 174- 178.

(٢٠) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١١٩-١٢٠، وأحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة، ص ٤٢، وسحر سالم: بنو سراج، ص ٤٥٢.

Seco, L. de Lucena: Mahammad IX Muhammad IX Sultan de (٢١)

.Granada,p.175-177

(٢٢) أسرة بنى السراج: إحدى الأسر العربية، أحد فروع قبيلة قضاة اليمينية. كانت البداية الحقيقية لظهورهك على الساحة السياسية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فقد عهدوا إليهم حراسة السواحل في إقليم بجاية، ثم بدأت في الظهور على الساحة السياسية مرة أخرى في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وكانت هذه المرة الأولى التي يصلوا فيها إلى القصور التي تحكم الأندلس ويتولوا فيها المناصب السياسية، حيث إنهم كانوا يقومون بدور سياسي بتولي الوزارة للسلاطين في تلك الفترة، وتدخلوا في عزل وتولية السلاطين، ساعدهم في ذلك ضعف بعض سلاطين بنى الأحمر انظر: أحمد مختار العبادي: فترة مضطربة في تاريخ غرناطة كما يرويها شاهد عيان، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع، ١٩٥٩م، ص ٤٧-٤٨، وسحر السيد عبدالعزيز سالم: بنو سراج وزراء بنى نصر، ص ٤٤٩-٤٥٥.

(٢٣) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس، ص ١٢١، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بنى الأحمر، ص ٥٥.

(٢٤) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس، ص ١٢١.

L.P. Harvey: Islamic Spain 1250-1500, London, 1990., p.225.

(٢٥) عبدالرحمن الحجى: التاريخ الأندلسي، ص ٥٦٥، وأحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة، ص ٤٣.

(٢٦) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٨١، وعبدالمنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب عبر العصور، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م، ص ٢٤٦، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص

(٢٧) جبل طارق: نسبة إلى مغارة كبيرة كانت فيه، وبعد الفتح الإسلامي سمي جبل طارق نسبة إلى الفاتح المسلم طارق بن زياد. انظر: ابن الخطيب: (أبو عبدالله محمد (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م): معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٧٤-٧٥، وأحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٢٨) استغلت مملكة قشتالة حالة الضعف في مملكة غرناطة، وانشغال بني مرين بما كان بها من خلافات ونزاعات بينها وبين بني وطاس، وتجمعت أعداد غفيرة من مدن عديدة تحت زعامة قشتالة، وفجأة ظهرت أمام الجبل مستغلة مدينة طريف، الذي أقنعهم حاكمها أن الفرصة سانحة لاسترداد الجبل، وأمام الأسوار ضربوا الحصار، وتمّ تطويق المدينة، وطالبت القوات المسلمين بالتسليم، إلا أن البعض منهم فضل المقاومة لآخر رمق، وبالفعل قاوموا الحصار، وسجلوا بطولات، إلا أنه أمام الأعداد الغفيرة من النصارى، لجأ المسلمون للتسليم، وطلبوا أربعة أيام مهلة لجمع متعلقاتهم، وأموالهم للرحيل، وذلك في شهر صفر سنة ٨٦٧ هـ / أغسطس ١٤٦٢ م. انظر: محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس، ص ١٢٢، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٥٦.

(٢٩) اتسمت ملامح مملكة بني مرين مع مطلع القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بالضعف، وبداية التدهور، ومع منتصف ذلك القرن بدأت علامات السقوط تظهر علي هذه المملكة التي لطالما كانت قوية، وكان آخر ملوكها السلطان عبدالحق المريني (٨٢٣-٨٦٩ هـ / ١٤١٥-١٤٦٤ م)، وهو ابن السلطان أبي سعيد المريني، ولم يكن كسلفه من حكام الدولة، ولكن



ترك الجبل علي الغارب للوزراء من بني وطاس، وعلى رأسهم الوزير يحيى بن يحيى الوطاسي. والوطاسيون بطن من بطون بني مرين، لكنهم أرادوا أن يمكنوا لأنفسهم، فبدأوا ينافسون سلطان بني مرين في حكم الدولة وفرض الهيمنة السياسية، ولما أراد السلطان المريني التخلص منهم وقتل قادتهم ومنهم الوزير يحيى نفسه، أغضب أنصارهم، واندلعت الثورة في أرجاء المملكة، وانتهت بمقتل السلطان المريني نفسه في عام ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م. وبمقتله انتهت دولة بني مرين، وفي عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١م تمكن زعيمهم محمد الشيخ أو محمد الوطاسي من دخول فاس، وقامت دولة بني وطاس. انظر: محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص ١٢٣، وأحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، نشر محمد أحمد بسيوني، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٤٥٨.

(٣٠) أرشدونة Archidona: مدينة مهمة من مدن الأندلس، كان لها دور حربي في الجهاد ضد النصارى، وكانت تعتبر حصناً منيعاً، وتقع قبلي قرطبة، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً. انظر: الحموي: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، مج ١، ص ١٥٢.

(٣١) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٩٧.

(٣٢) آخر سلاطين مملكة غرناطة، والذي وقع علي شروط تسليمها، وقام بتسليم مفاتيحها للملكة فرناندو وزوجته إيزابيلا في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، وهو أبو عبدالله محمد بن الغالب بالله أبي الحسن علي بن سعد بن محمد بن يوسف الثاني بن السلطان محمد الخامس بن السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، وهو ابن السلطان الغرناطي أبي الحسن علي، من ابنة عمه عائشة، وكان ولي عهد المملكة، إلا أن والده قام بعزله عن ولاية العهد، وقبض عليه هو وأخيه

ووالدتهما عائشة وسجنهم في الحمراء، بإيعاز من ثريا أو كوكب الصباح زوجته الإسبانية، وتمكن من الفرار إلى وادي آش، واندلعت ثورة عارمة في غرناطة انتهت بجلوسه على عرش المملكة، كان قد وقع في الأسر في مملكة قشتالة مرتين، وأقنعه أن تسليم غرناطة أمر لا بُدَّ منه، وأن المسألة مسألة وقت فقط. انظر: مجهول: أخبار العصر، ص ٨٣-٨٤؛ المقري: (شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م): نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨م، ج٦، ص ٢٦٢، وأحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٣-٤٦٤، ومحمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس، ص ١٥٤، ٢٠٧، ومحمد عبدالله عنان: أبو عبدالله آخر ملوك غرناطة، مجلة أدب ونقد، القاهرة، عدد ٨٨، مجلد ٩، ديسمبر ١٩٩٢م، ص ٥٠-٥٥، ويوسف كاظم جغيل: العلاقات السياسية لمملكة غرناطة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، العراق، ٢٠٠٤م، ص ٢٠-٢٢.

(٣٣) كان السلطان الغرناطي أبو عبدالله محمد، بن أبي الحسن علي قد وقع في الأسر في معركة دارت بين المسلمين وجيش قشتالة هي موقعة اللسانة في عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، وفي تلك الفترة تولى عمه أبو عبدالله محمد الزغل الحكم، بعد أن تنازل له أخوه أبو الحسن علي لظروف صحية، لكن بعد إطلاق سراح أبو عبدالله محمد من الأسر، وإيعاز من قشتالة وأراجون عمل على استرداد الحكم من عمه الزغل، الذي كان قد فضل الإقامة في وادي آش، ودارت الحرب الأهلية بين الطرفين، واستمرت الحرب لمدة شهرين ثم محمد في طاعة عمه الزغل، وبعد وقوع السلطان الصغير في الأسر للمرة الثانية، ثم إطلاق سراحه، اندلعت الحرب من جديد في عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، وتمكن من دخول ربض البيازين



سراً في ١٣ شوال ٨٩١هـ / ١١ أكتوبر ١٤٨٦م، وبايعوه سلطاناً للمملكة علي حين غفلة من أميرها محمد بن سعد المعروف بالزغل وأندلعت الحرب الأهلية مرة ثانية، فاستغلتها قشتالة لصالحها. انظر مجهول: أخبار العصر، ص ٧٨-٩١، وأحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٦، ويوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٦٢، ويوسف كاظم ججيل: العلاقات السياسية لمملكة غرناطة في القرن التاسع الهجري، ص ٢٠-٢٢.

(٣٤) الأميرة إيزابيلا Isabel هي شقيقة الملك هنري الرابع وتزوجت سرّاً من الأمير فرناندو ولي عهد مملكة أراجون ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م في عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٤م، في عام ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م تولّى الملك فرناندو الخامس عرش مملكة أراجون، اتحدت المملكتان. انظر: أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٣، ومونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد رضا المصري، لبنان، ١٩٩٥م. ص ١٥٩-١٦١.

. Fernando de Pulgar: Guerra de Granada, en Coleccion de Cronicas Espanolas- Juan de Mata Carriazo, Vol. VIII, Madrid, 1946, p. 5; William Hickling Prescott: History of the Reign of Ferdinand and Isabella -London, 1895, pp.181-183..

(٣٥) مجهول: أخبار العصر، ص ٨٧-٩٧؛ أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٦.

(٣٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٤، وأحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٩٧، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ١٠١-١٠٣.

- (٣٧) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧١.
- (٣٨) عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة، ص ١٠٣، وإبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٧.
- (٣٩) رودس: إحدى الجزر المهمة في البحر المتوسط، قبالة الإسكندرية، تفصلها عنها ليلة واحدة في البحر، وكانت تخضع للدولة البيزنطية، وتعتبر أول بلاد الروم، وبها دار كبيرة لصناعة السفن، وغالبًا كانت حملات الروم على الإسكندرية تخرج منها أو تمر عليها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ص ٧٨، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ٩٩.
- (٤٠) عن حملة المماليك علي رودس وما آلت إليه انظر: أحمد مختار العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٣٦-٣٣٧..
- (٤١) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧١، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ٩٩.
- (٤٢) الملك ألفونسو الخامس Alfonso V ملك أراجون، ابن الملك فرناندو الأول تولى في عام ٨١٣هـ/ ١٤١٦م، ولقب بألفونسو العظيم، لاتساع مملكته، وقوتها في عهده، فيد نجح في حكم أراجون باسم ألفونسو الخامس وحكم جزر ومايوركا وسردينيا وكورسيكا باسم ألفونسو الثاني، وحكم وصقلية باسم ألفونسو الرابع، وكان هدفه هو السيطرة على نابولي، وخاض بعض المعارك، وتمكن من السيطرة عليها في عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، وحكمها باسم ألفونسو الأول، وتمكن من الحصول على اعتراف البابوية به ملكًا عليها. ونقل عاصمة أراجون من



برشلونة إلى مدينة نابولي. وربط مصالحي أراجون بإيطاليا في فترة حكمه، وولي شقيقه خوان Juan نائباً للملك وحاكم لأراجون. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ص ٥٢١، ومحمد عبدالله عنان نهاية الأندلس، ص ١٧٩.

أما عن علاقته بمصر فقد سعي لتوطيدها في البداية لتحقيق مكاسب تجارية، ففي عام ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م تم عقد اتفاقية السلطان المملوكي الأشرف برسباني، لكنها ساءت في عهد السلطان جقمق بسبب رغبته التوسعية في حوض البحر المتوسط، والهيمنة عليه، وشن حروب علي الجزر الموجودة به. انظر: أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧٠-٧٢.

M. A. Alarcón y R. Garcia de Linares: Los Documentos Árabes Diplomáticos Del Archivo de la Corona de Aragón- Madrid y Granada, 1940, pp.335-338..

(٤٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧٠-٧٢.

M. A. Alarcón y R. Garcia de Linares: Los Documentos Árabes Diplomáticos, p.336-337..

(٤٤) السلطان أبو الخبرات معز الدين مراد خان الثاني بن محمد بن بايزيد، سادس سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم بعد وفاة والده محمد في عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م، له الفضل في ضم كل الإمارات التركية في الأناضول للدولة العثمانية، وأخضع كل البلقان لدولته، وخاض حروباً ضد الدولة البيزنطية، توفي في عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م. انظر: محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي مصطفى، ١٣١٤هـ، ص ٥٤-٥٨؛ محمد سهيل طقوش:

تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب علي الخلافة، دار النفائس بيروت، لبنان، ط ٣، ٢٠١٣م، ص ٩٠-٩٥.

(٤٥) عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة، ص ١٠٣.

(٤٦) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٧٨-١٨٠.

(٤٧) السابق ص ١٨١.

(٤٨) عبدالمنعم ماجد: انظر العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٤٦، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ٩٩-١٠٠.

(٤٩) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٩٧.

(٥٠) ابن إياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ هـ، تحقيق د. محمد مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م، ص ١٤٧-١٤٨، ومحمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ١٩٣١م، ص ١٣٩، وأحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٩٧.

(٥١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٨٢-١٨٥، ج ٣، ص ٢٤٤، ومحمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية، ص ١٣٩، وأحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٠٩-١١٠، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ١٠١-١٠٣، وسعيد عبدالفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٢٦.

(٥٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٢، وأحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٠٩-١١٠، وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ١٠١-١٠٣..

(٥٣) محمد عبدالله عنان: انظر مصر الإسلامية، ص ١٣٩-١٤١، محمد عبدالله عنان: انظر نهاية الأندلس، ص ٢٢٢.

(٥٤) محمد عبدالله عنان: انظر نهاية الأندلس، ص ٢٢٢.

(٥٥) ابن إياس: انظر بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٢، وأحمد دراج: انظر المماليك والفرنج: ص ١١٠-١١١، ومحمد عبدالله عنان: انظر نهاية الأندلس، ص ٢٢٠-٢٢١، وسحر سالم: انظر علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ١٠١-١٠٣.

Prescott Prescott, W.: History of the Reign of Ferdinand and Isabella, ..pp. 277-278

(٥٦) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، إبراهيم علي طرخان، ص ١٤٧- وسحر سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة، ص ١٠٣.

(٥٧) ليونارد باتريك هارفي: انظر تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، منشور ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمي الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨ م، ج ١، ص ٣٢٢.